١٦٦٣٤

أصول الدين

الدين ضرورى للعمران

— الفرق بين المؤمن وغيره —

قلنا فى مقالنا السابق ان الانسان مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى أرضى وانه لابد له بمقتضى هذا الجزء أن يتنقل فى المحسوسات ويوغل فى وادى اللذائذ الجثمانيات ولاشىء عليه فى هذا بل بذلك تحصل سعادته وتتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء ولكن رسمت له قواعد وحددت له حدودا .

غير أن المؤمن لايتفانى فى تلك المطالب البدنية ولا يتهالك عليها بل يراعى حدود الله فيها وبذلك يصفو عيشه وتتم راحته .

وأما غير المؤمن فيعدو وراء الأوهام وينخدع بأضغاث الأحلام ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب فيشقى شقاء لاسعادة فيه ويكدح كدحا لاراحة معه . قد عظُم فيه الشره . فهو يطلب أن يستأثر بكل شىء فتراه يثب ويثور الوحوش على أخوانه وبنى نوعه يفترسهم افتراس الذئب الضارى نائية النمر ويستلب منهم مااستطاع اليه سبيلا حتى يكون له من رفعة الحياة ووفرة المال وضروب اللذات مالبس لأحد سواه فى بلده أو قطره أو الدنيا كلها على حسب ماتسمح به درجته وتوصله اليه قدرته ، وهو الذى فى نفسه من التكالب الحيوانى على جمع المال والحرص على قتل غيره لينفرد بالحياة وما ركب فيه من ذلك الشره الذى لا يتناهى حتى لايساويه أحد ولايدانيه انسان فيكون وحيد دهره وفريد عصره على ما يزعمه شيطانه (ولو أنصف لعرف أنه وحش أخوانه ومفترس أقرانه) كل ذلك الذى يدور بنفسه ويطلبه على موجب شرهه وجهله هو بعينه فى نفس كل واحد من بنى نوعه بمقتضى الغريزة البشرية فلا يلبث أن يقوم فى وجهه قومة الأسد فى وجه من يريد أشباله فلا يزالان يتصارعان حتى يصرع أحدهما

الأخر بفضل غلبة الأهواء وعدم معرفة حقيقة السعادة والشقاء ، وأذن تنحل الروابط الانسانية بل علاقات القرابة الأبوية كما شاهدنا ونشاهد فتتفكك أجزاء الأمة ويكاد ينهار بناء المجتمع الانسانى لولا لطف الله تعالى به ووجود الكاملين فيه ، ولا غرو فالانسان مجبول على محبة الدنيا وعلى الافراط فيها كما قال تعالى « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » وقال « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » وقوة المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها التحاقد فالتحاسد فالتدابر فالتنازع فالتقاتل « نتائج طبيعية يستلزم بعضها بعضا » وهذه حقيقة ملموسة تراها بين الدول والأفراد وناهيك بالحرب الكبرى وما تفعله دول الاستعمار وما تراه من عمل المرابين ومحبى الأثرة فى كل أمة ودولة ، ولذا كان غرس مكارم الأخلاق التى تقف النفوس عند حدها وترسم لها طريق السعادة الحقيقية وتنفخ فيها روح الانسانية ويرشد اليها الدين ويعلو بها عن الصفات البهيمية من أول الضروريات التى يتوقف عليها صلاح الكون وبقاء النوع الأنسانى حتى لايذهب فريسة الشره وضحية الأطماع . لا فرق بين الأفراد وبين الأمم فى ذلك

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها الى سعادته الباقية وليسير على راحلتها الى محل قراره فهى فى نظره لاتتجاوز رتبة الوسائل التى تراد لغيرها ولا ترتفع الى درجة المقاصد التى تراد لذاتها وان كان لابد منها ، وقد اثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتمام حريتهم اذ لم تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت ابناءها المتعشقين لها المتهالكين عليها ولم تأخذ من قلوبهم الا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول السليمة ، ومن أجل ذلك قلّ فيهم الخصام وتم بينهم الوئام ، ولاتظن — أيدك الله — أنا نرى أن المؤمن لايتوسع فى الدنيا ولا يكون بعيد النظر فيها فانه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده الذى جعل له العزة وأوجب أن تكون أمته خير الأمم . وقد بسطنا ذلك فى مقال آخر

والمؤمن من أرفع الناس همة وعلى قدر همة الرجل تكثر واجباته وتكبر مروءته فتعظم أثقاله وهو الذى لايزال لسان حاله يقول :

أريد بسطة كف أستبين بها ... على قضاء حقوق للعلا قبلى

وحاله على ماوصف الله كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها وقد صرّح بعضهم بتلك الحقيقة عند ما امتلأت نفسه بهافقاضت منه قهرا عنه يقول

ظلمة فوق ظلمة أنا فيها　　أبدا مصبح كما أنا ممسى

فهذا رجل مسكين فقد النور والسرور غشيته الظلمة وأحاطت به الحيرة وقد قال الله تعالى فى مثله « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » حتى أنه اذا لم يكن له بلاء ظاهر ولا شقاء حاضر أملت عليه مخيلته المظلمة ما هو كفيل بازعاجه وعدم طمأنينته وكفى بذلك شقاء وبلاء، وانظر الى قوله فى هذه القصيدة :

تعترى جسمى هزّة كلما فكـــــرت أنى يوما سأفقد حسى

يخاف الموت ذلك الخوف البالغ وجدير به أن يخاف لانه ذاهب الى فناء أو شقاء ، أما المؤمن فلا يتزعج من الموت كما سمعت لانه يعتقد أنه انتقال من دار الشرور الى دار السرور ومن موطن الفناء الى محل البقاء حتى قال بعضهم وهل الخير كله الا بعد الموت ولكن ذلك الذى لا يؤمن بالآخرة لاحياة عنده الا هذه الحياة ولذلك يحبها حبا جمّا كما يقول فى القصيدة نفسها :

لم أزل بالحياة صبا وأن نـؤ　　ت بستين من سنى وخمس

الى أن يقول :

أنما الدنيا جـنّة لسعيد　　وجحيم لذى شقاء وبـؤس
لك فيها الحياة ما طبت عيشا　　كل شىء فلا تبعها ببخس

الى أن يقول :

قيل لى احمد على الشدائد والأو　　صاب ربما يهدى الورى ويُدسّى
قلت هذا ما لست أفعل شيئا　　منه حتى أردى فدعنى وتعسى

والرجل منصف يعترف بتعسه ونكسه ، لا بل هى الحقيقة تظهر بقوة سلطانها على لسان صاحبها وان حرص على كتمانها .

ومن هذا القبيل قول من يقول مناجيا لنفسه أو مناجيه له : —

قالت :　سئمت من الحيـا　ة ومفرق كالليل حالك
فأجبتها انى كذلك
قالت :　وأملت السعـا　دة فانثنيت بغير ذلك
فأجبتها انى كذلك
قالت :　ويرهـبنى الفناء يـ　ـؤمه باك وضاحك
فأجبتها انى كذلك
قالت :　وأجزع حـين أذ　كر أننى احدى الهوالك
فأجبتها انى كذلك
انى كذلك مثل غيـرى حائر أنى كذلك

ولا تعجب من ذلك الذى سمعت من حديث الظلمات التى بعضها فوق بعض وتلك الحيرة التى أحاطت بذلك الملحد الذى لا يدرى من أين جاء ولا الى أين يذهب مع ما للمؤمن من لذة الأنوار وبهجة الأسرار فـ « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » والخلاصة أن التربية على غير مبادىء الدين ترمى بالانسان فى هوّة لا يستطيع منها مفرا ولا يجد فيها مستقرا فان سنح له من نتوء تلك الهوّة ما يضع عليه احدى رجليه زلقت به الأخرى فهوى أبعد مما كان واذا تنسم بعض النسيم الذى يصل اليه أحيانا لم يلبث أن يزول ذلك عنه ثم يختنق بهوائها الفاسد ولا يزال كذلك يعانى صنوف العذاب (يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) حتى يذهب حيث شاء الله أو يعمد الى الانتحار تخلصا من ذلك الشقاء، كى يصل الى مركز يستقر فيه وما هو بواصل اليه (وَمَنْ كَانَ فِى هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا) لا يجد من نور اليقين ما يتسع به صدره فيهون عليه أمره وتستقر روحه فى مركزها الذى تحن اليه من عالمها الأعلى تنزل عليها السكينه وتحفها الطمأنينة فتعيش هادية مهدية وراضية مرضية بل

أخذته الدنيا فلم تدع منه شيئا حتى مات أسيرا فى يديها وهو متلهف عليها فهو معها (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) وهى معه (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) فضاع منه نصيب قلبه وبدنه جميعا وناهيك قول الله تعالى « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » ويقول فى مقابلهم « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ويقول « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

وأما تربية الدين فهى التربية التى يعيش بها الانسان هادئا مطمئنا يتبادل المودة والهناءة هو واخوانه المؤمنون قد اتحدت مبادئهم فلم تختلف أهواؤهم (كحالنا اليوم) فضلا عما له من السعادة الروحية التى هى أصفى وأرفع من السعادة البدنية .

وأما غيره فليس له من تلك اللذة شىء لأنه مشغول عنها منكس القلب نحو العالم الأدنى — وليتك تصدق أن المؤمن يجد من لذة الأكل والشرب وهبوب النسيم وازهار الرياض ونغمات الطيور ما لا يجده غيره لأن له نصيبا روحانيا لا يعرفه غير أهله .

ولعلك بكلامنا هذا يهيج منك خالص الايمان ويتحرك لديك صادق الوجدان فتفهم ما يشير اليه قوله تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ » وان كنت لا تتذكر تلك اللذة الروحانية التى كانت لك زمن الصحة وسلامة الفطرة عند ما يهب نسيم الأصيل أو يفوح شذى الأزهار أو يشرق نور الصباح وما كنت تجده اذ ذاك مما يكاد يسكرك بخمرة ذلك الجمال حتى يجعلك مبهوتا مستغرق القلب لا على النحو الذى تعرفه الآن مما يجعلك تتحرك وتفكر . بل مما يأتى عليك سباتا لذيذا يملأ القلب نوراً ويفيض الدمع سروراً وهذه هى اللذة الحقيقية والخمرة الروحية التى قال فيها بعض ذائقيها : —

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

يوسف الدجوى — من هيئة كبار العلماء